في الشعر السوداني

الطبيعـــة

للأستاذ علي العماري

— ٧ —

كنت كتبت منذ عام أبحاثاً في الشعر السوداني واتجاهاته وطبيعته ثم حالت ظروف دون إتمام هذه البحوث. والآن نستأنف الكتابة في هذا الموضوع، ونبدأ بالحديث عن تصوير الشعر السوداني للطبيعة السودانية.

الأدب طابع الأمة وصورة حياتها، ومظاهر عواطفها، واتجاهاتها، وسجل تقاليدها وعاداتها، وهو المميز لها (إن صدق) عن كل أمة أخرى غيرها، تظهر فيه أرضها وسماؤها وجدبها وغنؤها، وشرها وخيرها، وحلوها ومرها. ولكثير من الأمم نوع من اللباس أصيل فيها ورثته عن القرون البعيدة، ويعرف في كل أمة باللباس الوطني لها، وتستطيع لأول نظرة إذا كنت خبيراً — أن تدرك وطن اللابس من ملبوسه، وأن تعرف جنسه من زيه، وكذلك الأدب ولا سيما الشعر، إذا استوحى فيه الشعراء بيئاتهم، ولم يقلدوا فيه غيرهم، كان صورة صحيحة لبلادهم، ومميزاً واضحاً لهم. وإذا كنت تجد من الثياب ما يصلح لأكثر من واحد من الشعوب فكذلك تجد من الشعر، فأنت تقرأ مثلا قول الشاعر

ألا ليت الرياح مسخرات   بحاجتنا تباكر أو تأوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا   وتخبر أهلنا عنا الجنوب

فيقع في نفسك، بل تكاد تجزم أن هذا شعر سوداني، أو على الأقل يقوله شاعر يعيش في السودان. مع أن قائله شاعر نجدي

والطبيعة من أخص الأمور التي تصبغ أدب الأمة بصبغتها وتطبعه بطابعها، فليس من الممكن أن يكون الشاعر الذي عاش في صحراء يضرب فيها ممسياً ومصبحاً، وتروعه وحوشها ويلذعه حرها، وينتجع فيها مواطن الماء ومنابت العشب؛ كالشاعر الذي يعيش على شاطيء بحر أو نهر. يتنسم النسمات العليلة، ويروي من صور الآفاق والأرض والناس ما لا يرى صاحبه، ولن يختلط الشاعران أحدهما بالآخر إلا إذا خرجا عن دائرة الشعر الأصيل إلى دائرة الشعر التقليدية، حتى الكلمات ودلالتها لها آثار بعيدة المدى في طبع شعر الأمة بطابعها. فكثير من الشعوب — مثلا — يعتبر الخريف فصل الجدب تتجرد فيه الأغصان، وتذبل الأزاهير وتخلو الأرض من النبات، ولذلك يقولون للرجل إذا بلغ أقصى العمر إنه في خريف الحياة، ويقصدون من ذلك أن ما كان فيه من شباب وقوة قد ذهب ولكن الشاعر السوداني الذي يصدر عن عاطفة متساوقة مع شعور قومه ومعبرة عما يختلج في حياتهم من خصب ونماء لا يستطيع أن يعبر عن الخريف إلا أنه شباب الزمن وفصل الحياة والنمو. كما عبرت عنه الشاعرة البدوية السودانية لجعلت فيه (الطبيعة الصامتة) والجمال الحبيب. فهذا السحاب يحثم في الشرق مؤذنا الأرض بعودة شبابها الأخضر. أو هو قد آذنها أمس وقبله، ويؤذنها الليلة بوا كف مدرار. وتلك هي دجاجة الوادي ترجم كعادتها في الخريف إلى بيضها تحتضنه لتهب له الحرارة والدفء، ونقيق الضفادع يعلو في المشارع والمناهل، وأولاد الإبل تبدو مسرعات خلف أمهاتها فرحا بالخريف واستبشاراً به) وهذا في الحق تصوير رقيق لمظاهر الخريف ومباهجه التي تسري في الإنسان والحيوان على السواء.

ولسنا نعني من شعر الطبيعة أن يقول الشعراء — فقط — في المناظر الطبيعية التي تتراءى لهم في بلادهم، ولكنا نقصد أن تكون عواطفهم واتجاهاتهم مطبوعة بطابع هذه المناظر فنجد تشبيهاتهم وتخيلاتهم مستمدة من حياتهم؛ ولست تقضي العجب من هذا الشاعر الذي يتنقل بين (دادي هور) و (وادي كتم) و (صحراء العتمور) و (حدائق المقرن) ثم لا يذكر في شعره

معانيك في رفق ويسر وقلة فضول. وفي الآداب الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد في التصوير البياني والاكتفاء بشرح الأفكار الجديدة وحدها وترك ما عداها.

للبحث بقية

محمد عبد المنعم خفاجي
المدرس في كلية اللغة العربية

ألا البان والعلم والخيف من منى ووادي العقيق . .

والشعر السوداني شعران : شعر الخاصة : والشعر القومي .

والنظر الفاحص في شعر الخاصة يهدينا إلى أنه كغيره من شعر الأمم الشرقية مشدود إلى الشعر العربي بأربطة وثيقة ولا تكاد تجد له استقلالا عنه . وإذا كان الشعر في بعض البلدان تحلل من تقليد الشعر العربي القديم فإنه لا يزال في السودان حفياً به مقتفياً أثره ، متتبعاً خطواته ، فالشعراء يبدأون قصائدهم بالغزل كما كان يفعل القدماء ويقفون على الأطلال والدمن ، ويستوقفون الأصحاب كما وقف القدماء واستوقفوا ... وهكذا

وبطبيعة الحال لا تعدم في هذا الشعر الكثير الشاعر الصادق والشعر المصور فقد يصف الشاعر رحلته على الناقة ، كما وصف القدماء ، ويقف على الأطلال كما وقفوا ، وهو مع ذلك صادق لأنه؛ مر بهذه التجارب الشعورية ، وعاش فيها حينا من الزمن فهذا الشاعر السوداني حين رحل إلى وادي هور (وهو اسم واد غرب السودان ، وحوله من الآثار مايدل على أنه كان مثوى حضارة قديمة) رحل على ناقة لقى معها من عنت السفر أو مشقة الطريق مالقى ولا شك أنه حين وقف على هذه الآثار فاضت عبراته . وتدفق شعوره ، فصور ما وقع له ، لم يقلد فيه غيره ، ولم يصدر عن غير عاطفة ، وهـذا ما عرفناه من تاريخ حياته قال يذكر حبيبه :

لم أنســه إذ زارني ... منه خيال ما استقر
زار الرحال وبيننــا ... سير على البيد عسر
إيجاف شهر للمطى ... تخوض في كثب عفر
وسرى ليال لم تذق ... طعم الكرى حتى السحر
سبحان ربي أمين را ... دي النيل من وادي هور
وادي الجحاجحة الالى ... عمروه في خالي العصر
وعواصم القـاوم الذ ... ين بذكرهم تحلو السير
زرت الربوع فخانني ... صبري لذكرى من غبر
ما كان لي كبدا لسلو ... ولا فؤاد من حجر
بحل الجفون على ثرى الثا ... وين من إحدى الكبر

وهذا الشاعر مغرم بوصف بلاده ، وقد قال في كثير منها ، وأشبه شعره بالشعر العربي قصيدته في (مليط) وهي مركز من مراكز دارفور ؛ ولا نتهمه في شعوره بل إننا نقول إنه مع هذا النهج القديم صادق الشعور .

حياك مليط صوب العارض النادي ... وجاد واديك ذا الجنات من وادي
أسيتني برح آلامي وما أخذت ... منـا المطايا بإيجاف وإيخاد
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها ... أنس لذي وحشة رزق لمرتاد
فباسق النخل ملء الطرف يلثم من ... ذيل السحاب بلا كد واجهاد
وأعين الماء تجري من جداولها ... صوارما عرضوهـا غير إغماد
والورق تهتف والأظلال وارفة ... والريح ترقص ميـادا لميـاد

وقد نجد الشعراء المحدثين يتجهون اتجاها قومياً وإن كان بعضهم ترك الأفق الشرق عامة ، واتجه بعواطفه وميوله وشعره إلى أفق آخر لا يستقيم معه أدبنا . وعندي أن الأدب كالدين ، فمن ترك ديننا فقد كفر بالله ومن ترك أدبنا فقد كفر بالوطن . وهؤلاء الشعراء المحدثون ينظمون — أحيانا ... في مناظر بلادهم . وللشاعر التيجاني يوسف قصيدة في جزيرة « توتي » وهي جزيرة تقع بين الخرطوم وأم درمان خصيبة التربة . طيبة الهـواء ، وصفها الشاعر فأجاد ، ومن قوله فيها

يادرة حضنهـا النيل ... واحتواها البر
صحـا الدجى وتنـ ... شاك في الاسرة فجر
وطاف حولك ركب ... من الـكراكي أغر
وراح ينفض عينيه من ... بني الأيك حسـر
فضـاج بالأيك عش ... وقام في العش دبر
كم ذا تمـازج فن ... على يديك وسحـر
يخـور ثور وتثغـو ... شـاة وينهق حمـر
والبهم تمرح والزر ... ع مـونق مخضر
تجاوب اللحن والطا ... حن والثغاء المسر
وهب صوت النواعير ... وهو في الشجو مر

وكلها — وهي طويلة — على هذا النحو من التصوير الناطق والتعبير البسيط .

أما الأدب القومي فهو صورة صحيحة للحيـاة السودانية الطبيعية ، ففيه الأحاديث الطوال عن السحائب الغر ، التي تجود عليه بالمطر ، وعن الأشجار الباسقة من سرح وسدر وحيز، وعن